طريق الحرير، طريق الفضة *

■ پيتر فرنكوبان

عندما كان فاســكو داغاما يعْبر طريق (رأس الرجاء الصالح) ويتجه نحو الشــمال، تغيرت حظوظه؛ ففــي مالِندي ما عرف فقــط الطريق نحو الشــرق، بل ووجــد بحّــاراً مجرَّباً كان مســتعداً لمساعدته على التعامل مع رياح المونســون من أجل بلوغ الهند. وقد استمرت الرحلة عشرة أشهر، ثم رست ســفينته في كاليكوت. وهكذا فقد نجح حيث فشل كولمبوس؛ إذ إنه وجد طريقاً بحرياً إلى الشرق.

في كاليكــوت وجد مجتمعاتٍ مــن التجار جــاءوا من مواطن قريبة، وبيــن تلك الأصــوات التي ســمعها صرخات بلغــةٍ أليفة: ليأخذك الشــيطان! وكانت تلك مزحة أحد تاجرَين مســلمَين من تونس كانا يعرفــان ـ إضافةً للعربية ـ الإســبانية والجنوية. وبعد تبادل التحيات، قال له أحدهما: ما الــذي جاء بك إلى هنا؟ ثم إنهما بشّراه: لقد جلبك إلى هنا حظُّك الطيِّب، هنا كمياتٌ هائلةٌ من الجواهر واللآلئ، عليك أن تشكر الله الذي أوصلك إلى أرضٍ فيها كل هذه الثروات!

---

* فصل من كتاب Peter Frankopan, The Silk Roads (2015) , pp. 220 ـ 242

■ مؤرخ بريطاني، مدير قسم الدراسات البيزنطية في جامعة أوكسفورد.

ومع ذلك، فقد بذل البرتغاليون جهوداً لكي يعوا ماذا كان يظهر أمامهم، كما سبق لكولومبوس أن فعل قبل مدةٍ قصيرة في مكانٍ آخر تماماً. هناك بالهند معابد مملوءة بالتماثيل لآلهة الهند، تلبس تيجاناً من الذهب، وقد ظنَّ البرتغاليون المعابد كنائس، والتماثيل للأنبياء والقديسين، كما أنّ الماء الذي يُستعمل للطهارة ظنّه البرتغاليون هو الماء المبارك الذي ينثره الكاهن على المصلّين، وإلى جانب ذلك كانت قصةُ القديس توماس تعيش في المخيلة المسيحية الأوروبية منذ زمنٍ طويل. وتوماس المزعوم هو أحد حواريي المسيح، وقد وصل للهند، واهتدى على يديه الكثيرون كما تقول الأسطورة، ولذلك يمكن أن تكون هناك بالهند عشرات الممالك المسيحية التي لديها الاستعدادُ للتحالف مع أوروبا في مقاتلة الإسلام. لقد عاد داغاما من الهند بانطباعات بعضُها خيالٌ محضٌ، وبعضها الآخر خطأٌ محضٌ.

في المفاوضات مع زامورين حاكم كاليكوت واجه داغاما أسئلةً محرجة، لقد كان مضطراً لأن يورد شاهداً على ادّعائه أنّ الملك الذي أتى من عنده هائل الثراء، وهو ثريٌّ «أكثر من أي ملكٍ في هذه الأنحاء»؟ فإذا كان الأمر صحيحاً، فلماذا لم يأت معه بشيءٍ من ذلك؟! لكنه عندما بدأ يُخرج هداياه من القبّعات والمغاسل مع بعض أصداف البحر والسكر والعسل؛ فإنّ موظفي البلاط عند زامورين ضحكوا وسخروا، وقالوا: إنّ أفقر التجار الآتين من مكة ما كان ليهين الحاكم بإهدائه من هذه البقايا التافهة! وتصاعد التوتر، فوجد البرتغاليون أنّ حركتهم صارت محدَّدة وتحت الرقابة من كتيبةٍ من الحرس، مسلحين بالسيوف، ولديهم فأس ضخم ذو حدَّين للمعركة، ودروع، وحراب، وسهام. وقد خشي داغاما ورجاله حدوث الأسوأ. لكنّ الفرج أتى بعد يومين حين أرسل إليهم زامورين خبراً يسمح لهم فيه ببيع ما عندهم في السوق والشراء كما يشاءون. وهكذا فقد انصرفوا لشراء الأفاويه والتوابل؛ لكي يقدّر ذلك الناس الذين أرسلوهم. ومع ضآلة قيمة ما جلبوه؛ فإنّ وصول تلك السِّلَع للبرتغال غيَّر العالم!

لقد كانت عودة فاسكو داغاما إلى لشبونة ـ بعد عامين من رحلته الملحمية ـ أمراً يستحق أكبر الاحتفال، وفي الاحتفال ـ الذي جرى بحضور الملك مانويل ـ

جرى تشبيه داغاما بالإسكندر الأكبر فاتح الهند أيضاً، وقد اشتهر هذا التشبيه وتكرر مراراً خارج البرتغال. فقد افتتح داغاما عالماً جديداً ما كان معروفاً من قبل نحو الشرق، وقد شعر الملك مانويل صهر فرديناند وإيزابيلا ملكي إسبانيا بالاعتزاز، بحيث كتب إليهما واصفاً الغنائم التي أتى بها فاسكو داغاما بما في ذلك الأحجار الكريمة والبهارات وأنواع النباتات. وأضاف: ستكونون فرحين ومعتزّين بما أنجزه صهركم (= زوج ابنتهم).

على أن أسف حكّام إسبانيا لوصول البرتغاليين إلى ما لم يصلوا إليه هم لقي بعض العزاء؛ فبعد الرحلة الأولى عَبْرَ الأطلسي طلب الإسبان من البابا أن يعطيهم السيادة على كل الأراضي التي اكتُشفت فيما وراء البحار، وهو الأمر نفسه الذي فعله للبرتغاليين بشأن مكتشفاتهم بأفريقيا. لقد كان البابا مضطراً لإصدار أربعة مراسيم عام 1493 بشأن تقسيم العوالم المكتشفة. وبعد مماحكاتٍ كثيرةٍ بشأن الخط الذي ينبغي أن يُرسم بين ممالك الإمبراطوريتين جرى الترسيم أخيراً في عام 1494 من خلال اتفاقية Tordesillas، والتي رسمت خطاً حدودياً على مبعدة 370 درجة بعد رأس الجزيرة الخضراء. وهذا «الخط المستقيم» ـ كما تقول الاتفاقية ـ ينبغي أن يمتد من الشمال إلى الجنوب، ومن القطب إلى القطب. وكلُّ ما هو غربي الخط يكون من ممتلكات إسبانيا، وما هو شرقي الخط فيكون من ممتلكات البرتغال. وقد تبيّنت أهمية هذا الخط بعد ثلاثين سنة. ففي عام 1520 نجحت السفن البرتغالية في المضي أبعد نحو الشرق، ووصلت إلى ملقة، وإلى جزر التوابل وغوانغزو. لقد أدرك الإسبان أنهم اكتشفوا قارتين، إنما ولمفاجأتهم فإنّ بحاراً عَبَر المحيط الهادي (= الباسيفيكي) وبلغ الفليبين وجزر التوابل، وهذا يعني أنّ الإسبان والبرتغاليين قاموا بدورةٍ كاملةٍ حول الأرض! وكانت هناك بعض وجوه السخرية الغريبة؛ فالذي اكتشف أميركا برتغالي أيضاً؛ لكنّ البلاط الإسباني

كانت عودة فاسكو داغاما إلى لشبونة ـ بعد عامين من رحلته الملحمية ـ أمراً يستحق أكبر الاحتفال، وفي الاحتفال ـ الذي جرى بحضور الملك مانويل ـ جرى تشبيه داغاما بالإسكندر الأكبر فاتح الهند أيضاً.

اشترى خدماته وأرسله، في حين ما استطاع وقتها الحصول على دعم ملك البرتغال. وكانت مهمته هذه المرة بلوغ جزر التوابل من ناحية الغرب. وعندما قام فرديناند ماجلاّن برحلته هذه (1519 ـ 1520)؛ كان لا بدَّ من العودة إلى طاولة المفاوضات بين الإمبراطوريتين الكاثوليكيتين المتنافستين والمتحاسدتين؛ وذلك لوضع خط في الباسيفيك يوازي الخط الذي وضع في الأطلنطي. لقد قسم الجاران الأيبيريان الكرة الأرضية فيما بينهما. ولأنهما نالا بركة البابا؛ فهذا يعني أن الله معهما!

لقد كان على بقية أوروبا آنذاك أن تلائم نفسها مع الحظوظ المتصاعدة لكلٍ من إسبانيا والبرتغال، إنّ عودة داغاما إلى لشبونة عام 1499 جرى تلقيها بانزعاج ومخاوف وهستيريا من جانب البندقية. فقد قال جيرونيمو بريولي: إنّ لشبونة أخذت تاج التجارة من البندقية، وإنّ البندقية إلى نهاية! وهذا أمرٌ سهلٌ ولا مبالغة فيه. فالهنغاريون والألمان والفرنسيون والفلاميون، هؤلاء جميعاً، وبعد أن اكتشفت البرتغال طريقاً بحرياً للهند، سيعمدون لشراء التوابل والأفاوية والسلع المشابهة من لشبونة وليس من البندقية؛ لأنّ السِلَع المجلوبة عبر الطريق البري تلقى عقباتٍ جمةً، وتدفع رسوماً وجمارك عدة مرات، فتصبح السِلَع غالية الثمن؛ في حين يعرضها البرتغاليون الذين جلبوها عبر الطريق البحري بأسعارٍ منخفضة لا يمكن منافستها. وما توصل إليه بريولي استنتجه آخرون أيضاً؛ فقد قال غويدو ديي عام 1500 ـ وهو تاجرٌ من فلورنسا كان متوطناً بالبرتغال ـ: إنه متأكد أن البنادقة سيفقدون السيطرة على النقل والتبادل التجاري؛ لأنهم لن يستطيعوا منافسة أسعار البرتغاليين للسِلَع المستورَدة. وسيكون على البنادقة التفكير بالعودة إلى صيد السمك. كما أنّ المدينة ستعود للسقوط في الوحول التي أخرجتها شراكتها التجارية منها.

لقد كانت الشائعات عن انهيار البندقية شديدة المبالغة، وعلى الأقل في المدى القصير؛ فقد قالت أصواتٌ معتدلةٌ: إنّ فتح طريق بحري للشرق هو أمرٌ لا يخلو من مخاطر؛ فكثير من السفن البرتغالية ستغرق أثناء رحلتها؛ فمن بين 114 سفينة ـ كما أخبر رجل الدولة البندقي فيسنزو كوارينى مجلس المستشارين بالمدينة عام 1506 ـ 19 سفينةً منها غرقت بالتأكيد وهي محملة

بالتوابل، وهناك أربعون سفينة أخرى لا يُعرفُ شيء عنها. وعلى الرغم من ذلك فإنّ البندقية سرعان ما أرسلت مبعوثين إلى مصر الإسلامية لمناقشة وسائل للتعاون ضد البرتغاليين، وقد اقترح البنادقةُ القيامَ بعمل عسكري بحري مشترك ضدهم، بل واقترحوا على المماليك ـ حكّام مصر ـ الإسراع في حفر قناة بالسويس (ما صارت إلا بعد قرون)، على أساس أن البرزخ الواسع بين البحرين يسمح بمرور سفنٍ كثيرةٍ دونما حاجةٍ لمصارعة البرتغاليين!

وبالطبع فإنّ البرتغاليين رأوا أنّ المؤامرة ضد وجودهم إنما دبّرها البنادقة؛ لكن في الحقيقة فإنّ المصريين ما كانوا محتاجين إلى استحثاثٍ كثير؛ إذ وجدوا أنه من الضروري أن تكون لهم السيطرة على بحورهم، وقد كان ظهور السفن البرتغالية الكثيرة مزعجاً لهم جداً، ليس بسبب التنافس التجاري فقط؛ بل ولأنّ البرتغاليين كانوا عدوانيين وعنيفين جداً. ففي إحدى المناسبات قام فاسكو داغاما نفسه بإحراق سفينة عليها مئات من الحجاج المسلمين العائدين من مكة إلى الهند. وقد فعل ذلك بغياً وعدواناً، رغم أنهم عرضوا عليه كل ما يملكون لإنقاذ الأطفال والنساء على الأقل. وهذا المشهد المخيف قال عنه أحد مرافقي داغاما: إنه لن ينساه طوال حياته. كما وصف آخر كيف كان المعرضون للنار يحاولون افتداء حياتهم بما يملكون، في حين يحاول آخرون رفع أطفالهم فوق لهيب النيران! وكل ذلك حدث تحت بصر داغاما الواقف على سفينته الحربية بارداً دونما ردة فعل، حتى غرق الجميع محروقين تحت أنقاض السفينة الغارقة. لقد كانت الهجمات على الموانئ والأماكن الاستراتيجية من جانب البرتغاليين شديدة الإزعاج والإقلاق للمماليك في مصر والشام. وقد هاجم البرتغاليون جدة ـ ميناء مكة ـ عام 1505، وهاجموا بعد ذلك مسقط وقلهات، وهما ميناءان مهمان على الخليج، فنهبوهما وأحرقوا مساجدهما وسووها بالأرض. وقد كان مقلقاً لأهل المنطقة أن البرتغاليين

لقد كانت الهجمات على الموانئ والأماكن الاستراتيجية من جانب البرتغاليين شديدة الإزعاج والإقلاق للمماليك في مصر والشام. وقد هاجم البرتغاليون جدة ـ ميناء مكة ـ عام 1505، وهاجموا بعد ذلك مسقط وقلهات.

فكروا بإنشاء محطاتٍ وقلاع حصينة على طول الشاطئ المؤدي في النهاية إلى لشبونة. وقد رأى المستكشف فرنشيسكو ألمايدا عام 1505 أنه لا بدَّ من إنشاء قلعة أو حصن عند فم الخليج أو على مقربة منه حتى لا يطمع أحدٌ في الهند بالاتجار مع غير البرتغاليين!

وفي مواجهة كل هذا العنف والاستعراض، أرسل سلطان القاهرة كتائب للطواف في البحر الأحمر وسواحله، والاشتباك مع البرتغاليين عندما يكون ذلك ضرورياً. وقد رأى بعضُ قادة البرتغاليين أنه لا بدَّ من تغيير بعض التكتيكات؛ إذ كانت سفنهم تعرّض نفسها للأخطار دون داع. ثم إنه لا بدَّ من هجران بعض القلاع التي أُقيمت على فم الخليج مثل قلعة جزيرة سقطرى. وإذا أمكن فينبغي إقامة علاقات ودٍّ مع القاهرة المملوكية. لقد بدأ الأمر بعنفٍ أعمى وتعصُّبٍ لا مثيل له. ولذلك كان لا بدَّ من تهدئة الأمور، والتوقف عن الحديث عن انتصار المسيحية وزوال الإسلام، وانتهاج سياسة أكثر عقلانية. ومع تعاظم الفوائد التجارية؛ فإنّ موقف البرتغاليين من الديانات البوذية والهندوسية والإسلام صارت أكثر هدوءًا، وقد حصل ذلك من قبل مع الصليبيين بالنظر للكثرة الساحقة من المسلمين في المناطق التي يحتلونها أو هم مضطرون للتعامل معها. ومن جهةٍ أُخرى فإنه مع تصاعد الفوائد المالية للجهات الإسلامية، صارت تلك الدول والإمارات تتنافس فيما بينها بإعطاء شروط أفضل للبرتغاليين للإفادة من التجارة معهم، وقد حاول ذلك أمراء الهند المسلمون، وجزر ماكاو وملقة. لقد كان من مصلحة كل المشاركين في التجارة التخفيض من شأن الاختلافات الدينية. ليستفيد الجميع من التبادل التجاري الذي صار البرتغاليون عنصراً رئيساً فيه. ومع ذلك فقد ظلّت لدى بعض القادة البرتغاليين مجموعة من الأوهام وسوء التقدير؛ ومن الأمثلة على ذلك ما قاله ألفونسو ألبوكيرك عند الاستيلاء على ملقة؛ فقد زعم أنّ ذاك الاستيلاء يعني «أن القاهرة ومكة سيجري تدميرهما، كما أنّ البندقية لن تكون قادرةً على الحصول على شيءٍ من التوابل إلاّ من البرتغال». وكانوا عازمين على إبادة أهل ملقة؛ لأنهم يشكّلون عنصر إقلاقٍ وتعطيل للتجارة البرتغالية. ولذلك

فإنّ الأُسرة الحاكمة في ملقة قد انسحبت وأسست سلطنةً جديدة في بولاك وجوهر؛ لكي تتمكن من مواجهة القوى الأوروبية الزاحفة والمتنافسة. وفي النهاية، وعلى العكس مما حصل في أميركا، فإنّ العملية صارت أدنى إلى التعاون بدلاً من الإصرار على الفتح والقهر. وكانت النتيجة صعود تجارة هائلةٍ من الشرق إلى أوروبا.

إنّ الثروات الهائلة التي تدفقت على أوروبا من أميركا، زادت من الميول الأوروبية لشراء السِلَع الغالية من آسيا. وهكذا فإنّ أسواق لشبونة وانتقرب ومواطن أخرى سُرعان ما حفلت بالبورسلين الصيني، وحرير المنغ. بيد أنّ السِلَع المفضّلة إلى حدٍ بعيدٍ ظلّت التوابل لجهتي الكميات والرغبة. فكل أنواع التوابل الشرقية صارت هي المفضَّلة في إعداد الطعام بأوروبا، على نحوٍ ما عرفه التبادل التجاري منذ أيام الرومان. وكان ذلك فيما يُعتقد بسبب القيمة الغذائية والقيمة الطبية. وقد ساد اعتقادٌ أنّ بعض أنواع التوابل والبخور والأزهار والنباتات الشرقية مفيدة للقلب والمعدة، وواقية من أمراض الصرع. وفي كتابٍ عربيٍّ للوصفات الطبية انتشر في تلك الفترة زعمٌ بأنّ هذه النبتة أو تلك ترفع من القدرات الجنسية، بحيث يستطيع الرجل أن يكتسب ودَّ النساء من جديد.

إنّ الثروات الهائلة التي تدفقت على أوروبا من أميركا، زادت من الميول الأوروبية لشراء السِلَع الغالية من آسيا. وهكذا فإنّ أسواق لشبونة وانتقرب ومواطن أخرى سُرعان ما حفلت بالبورسلين الصيني، وحرير المنغ.

ومن أجل ذلك كله فقد كان التنافس على الاستئثار بتجارة التوابل هذه هائلاً وعظيماً. ومن جهةٍ ثانية ـ ورغم الشهرة الهائلة لنتائج رحلة فاسكو داغاما الأولى ـ فإنّ طرق التجارة القديمة لم تتغير بين يومٍ وليلة. وما كان من همّ المستهلكين الأوروبيين بأي طريقٍ تصل تلك السِلَع إلى أوروبا؛ بل كان المهمّ هو القيمة أو الثمن. وقد كان التجار يراقب أحدهم الآخر بغيرةٍ وتوجس: بأي سعر تُباعُ السلعة، وكيف يمكن الحصول عليها من أقصر طريق. وقد جنَّد البرتغاليون تاجراً مثل ماثيو بيكودو في المتوسط ليتجسَّس لهم على القوافل الآتية عبر البر والبحر من مصر ودمشق، وما هي السِلَع التي تحملها،

وما هي الأسعار التي تعرضها بها. وكانت الشائعات عن المحاصيل السيئة، وعن اختفاء السفن مع حمولتها وعن الاضطرابات السياسية، كفيلة بتغيير الأسعار من يومٍ ليوم. وقد كانت هناك متابعات لتواريخ انطلاق السفن، ولنوعية السِلَع وكمياتها. وبالطبع فإنّ الشرقيين هم الأسرعُ وصولاً لتلك المعلومات. وقد صار الطريق الآمن والقصير عاملاً شديد الأهمية، بدلاً من الدوران حول إفريقيا. وفي ضوء ذلك كله فقد صار أمراً محطِّماً للأعصاب أن يقرر صاحب رأس المال في أي سلعةٍ يستثمر؛ ففي عام 1560 تابع التاجر اليساندرو ماغنو بقلقٍ ارتفاعَ أسعار البهارات بنسبة 10% خلال أيامٍ قليلة؛ ولأنه ما كان يدري سبباً لذلك ولا يريد المغامرة؛ فقد ألغى صفقة شراء البهار، واشترى توابل أُخرى؛ وذلك لأنّ المرء كان مهدَّداً أحياناً ليس بنقص أرباحه فقط، بل وبضياع رأس المال. وقد كان عليه أن يشتري بأسعار تظلُّ معها السلعة قابلةً للشراء من جانب الزبائِن الراغبين.

في كل عامٍ كانت تُشحن إلى أوروبا ملايين الكيلوات من التوابل، وبخاصةٍ البهارات، وما كان من قبل صنعةً لا تليق إلاّ بالطبقة الأرستقراطية صار أساسياً في السوق لكل الطبقات، والحَكَم في ذلك العرضُ والطلب ولا شيء غير. والأرباح الهائلة هي التي تعلِّل لماذا كان البرتغاليون حريصين على إقامة طريق حريرهم الخاص. فقد أقاموا سلسلةً من الموانئ والخلجان، تربط لشبونة بساحل أنغولا وموزمبيق وشرق إفريقيا.. مع مستعمرات ثابتة ومحطات تجارية من الهند وإلى ممر ملقة وجزر التوابل. وقد حالفهم النجاح في ذلك، بحيث إنه وخلال عقودٍ قليلةٍ بعد رحلة فاسكو داغاما، صار دَخْل الدولة البرتغالية من تجارة التوابل هو الأعلى والأكثر جلباً للمكاسب.

ومع ذلك فإنّ تلك التجارة واجهت عقباتٍ هائلة، ومن تلك الصعوبات أنّ الآخرين كانوا حريصين على المشاركة في هذه التجارة المربحة جداً، فبعد استيلاء العثمانيين على مصر عام 1517 بعد اضطرابٍ سياسي، صاروا هم القوة الرئيسة في شرق البحر المتوسط. ولذلك فقد قال البابا ليو العاشر إنّ التركي بعد أن سيطر على القاهرة والإسكندرية لن يحاصر صقلية وإيطاليا فحسب؛ بل إنه يوشك أن يسيطر على العالم! وقد ازداد إحساس

أوروبا بالخطر بسبب نجاحات العثمانيين في البلقان، واقترابهم من وسط أوروبا. لقد كان الصدام قادماً؛ كما ذكر إرازموس الفيلسوف في رسالةٍ إلى صديقٍ له في النصف الأول من القرن السادس عشر؛ ذاهباً إلى أنّ هذا الصدام سيحدد مستقبل العالم؛ وذلك لأنّ «العالم لم يعد يتحمس لوجود شمسين في السماء». وهكذا فإنّ المستقبل إما أن يملكه المسلمون أو المسيحيون، ولا يمكن أن يتشاركا! وقد أخطأ إرازموس في توقعاته، كما أخطأ أقرانه المسلمون في العالم العثماني. فقد كانوا يقولون: كما أنه لا إله إلاّ اللّه؛ فإنه لا يمكن أن تكون في العالم غير دولةٍ كبرى واحدة! ما كانت هناك حروب إبادة؛ لكنّ الجيش الهائل الذي وصل إلى هنغاريا واقترب من وسط أوروبا أثار ذُعراً هائلاً، وبخاصةٍ بعدما هزم القوات التي تجمعت بسرعةٍ لكسْره أو إيقافه في موهاتش بجنوب هنغاريا. والذي حصل: ظهورُ عداوةٍ طويلة المدى امتدت إلى المحيط الهندي والبحر الأحمر والخليج.

في كل عامٍ كانت تُشحن إلى أوروبا ملايين الكيلوات من التوابل، وبخاصةٍ البهارات، وما كان من قبل صنعةً لا تليق إلاّ بالطبقة الأرستقراطية صار أساسياً في السوق لكل الطبقات، والحَكَم في ذلك العرضُ والطلب ولا شيء غير.

كان العثمانيون مطمئنين إلى قوتهم، وقد اتجهوا لزيادة نفوذهم من أجل المشاركة في التبادل والثروات التجارية عبر آسيا. وقد سلكوا المسلك نفسه، من شراء العملاء، وإلى بناء الحصون أو ترميمها ورفعها على مشارف السواحل المطلة على المتوسط والأحمر والخليج. وقد كان الأمن سائداً على هذا الطريق إلى حدٍّ أن البرتغاليين كانوا يستعملونه أيضاً في تجارتهم.

لقد كان ذلك غريباً بعض الشيء؛ لأنّ العثمانيين كانوا يستخدمون العنف دائماً ضد البرتغاليين. وقد شنَّ العثمانيون هجوماً بحرياً على حصن ديو في جنوب غربي الهند عام 1538، كما أنهم شنوا هجمات على السفن البرتغالية عدة مرات. وقد كان هناك قبطان اسمه «سفر» حقق عدة نجاحات، بحيث وُضعت مبالغ من أجل قتله. وقد اشتهر أن العثمانيين تصاعد ثراؤهم لكثرة ما غنموا من البرتغاليين، هكذا شكا قبطان أوروبي، ملاحظاً أن أسطول **سفر** ينمو ويتسع

دائماً وباستمرار. وقد استغرب القبطان قدرة **سفر** على الانتصار رغم قلة السفن التي كانت تحت قيادته؛ قال القبطان: «كم سيرسل هذا الرجل من الثروات إلى وطنه، وكم سيكون أمره مزعجاً لنا إذا بلغت سفنه الثلاثين سفينة». لقد أثبت العثمانيون أنهم خصومٌ قادرون في الحرب وفي التجارة؛ «ففي كل سنة تصل ملايين الكيلوات من التوابل إلى الإسكندرية، أهم الموانئ في شرقي المتوسط. ولذلك ليس عجيباً أن تصبح الكميات الواصلة إلى لشبونة قليلة»!

لكن في هذا الوقت أيضاً بدأ الطلب على التوابل يتراجع، مما دفع ببعض التجار إلى التحوّل بالتدريج نحو سلع شرقية أُخرى مثل القطن والحرير. وقد ظهر ذلك في نهاية القرن السادس عشر عندما ازداد استيراد الحرير إلى أوروبا. ويقول باحثون قدامى، ويوافقهم محدثون: إنّ هذه الظاهرة (الإعراض عن استيراد التوابل) سببها فساد سياسات الدولة البرتغالية التي رفعت الضرائب على سِلَع التوابل. كما أنّ البرتغاليين ما نجحوا في إقامة شبكات توزيع ذات كفاية في البلدان الأوروبية. ولذلك ازدادت ضغوط العثمانيين عليهم في التجارة كما في الحرب. وقد كان في قلب التنافُس الطرق التي تمر بها السِلَع والضرائب المستوفاة عليها في طريقها إلى أوروبا الغنية.

لقد ارتفعت حظوظ العثمانيين من الضرائب بقدر السفن المارة في البحر الأحمر والمتوسط والخليج، ثم إنّ ارتفاع الاستهلاك الداخلي لتلك السِلَع زاد من مداخيل الدولة، وقد أحدث ذلك كله تغييرات ليس في المدن فقط؛ بل وفي الأرياف أيضاً. وما كان ذلك قاصراً على أوروبا؛ بل حدث في البلقان العثماني وأجزاء الدولة الأخرى التي كثرت فيها الصروح الضخمة والمساجد والأسواق التي جرى التفنن في إنشائها وتوسعتها. وهذه المشروعات العامة والسلطانية يعود الفضل فيها **للمهندس سنان** في زمن السلطان سليمان القانوني (1520 ـ 1566)؛ لقد بنى **سنان** حوالى ثمانين مسجداً جامعاً، وستين مدرسة، واثنين وثلاثين قصراً وثلاث مستشفيات، إضافةً لمنشآت أخرى متعددة مثل الجسور ومجاري المياه

والحمامات والخانات خلال عهد سليمان وابنه سليم الثاني. بنى **سنان** مسجد السليمية في أدرنة (في شمال غربي تركيا الحديثة) بين 1564 و1575، وكان فيه من الإبداع بحيث قيل: إنه من عجائب الدنيا! لكنه يشير أيضاً إلى حماسٍ ديني؛ إذ يقال: إنه لا يمكن بناء ما هو أضخم من كنيسة آيا صوفيا، وقد أثبت **سنان** في السليمية أن ذلك ممكن.

على أنّ الإنفاق على الإنشاءات كان عظيماً أيضاً في إيران، وقد نافست هذه النزعة ما كان قد بدأ في أوروبا؛ فقد قامت الدولة الصفوية من خلال فرعٍ تيموري جانبي بعد موت تيمور في مطلع القرن الخامس عشر، وبلغت ذروة قوتها في عهد الشاه عباس الأول (1588 ـ 1629م)، الذي غيّر بإنشاءاته مدينة أصفهان الواقعة في وسط إيران، وبالإضافة للأسواق ومبانيها، هناك تنظيم إمدادات المياه، وهناك البستان الرائع والمسجد الكبير مثلما كان عليه الأمر في درنة. وقد تمكن رهبان الكرمل من إهداء الشاه ترجمةً فارسية للمزامير، والذي تقبّلها بترحابٍ كبير، وأرسل البابا پول الخامس إلى الشاه نسخةً مصوَّرة من الإنجيل، كما أنّ اليهود ترجموا التوراة إلى الفارسية؛ لقد كان عهداً من التسامح الديني يدلُّ على ثقةٍ من جانب الشاه ورجالات البلاط بدينهم وعدم الخوف من المنافسة في المجال الديني. لقد استخدم العثمانيون والصفويون الثروات الجديدة من ضرائب التجارة في العمارة، وفي تطوير المجتمعات بالداخل وإراحتها وازدهارها، وقد أفاد العثمانيون والصفويون من تدفق الذهب والفضة من أميركا؛ لكنّ المستفيدين الرئيسين كانوا أولئك الذين أنتجوا تلك السِلَع في الشرق البعيد، في الصين والهند وآسيا الوسطى.

بدأ الطلب على التوابل يتراجع، مما دفع ببعض التجار إلى التحوّل بالتدريج نحو سلع شرقية أُخرى مثل القطن والحرير. وقد ظهر ذلك في نهاية القرن السادس عشر عندما ازداد استيراد الحرير إلى أوروبا.

ولقد أفادت أوروبا كثيراً من الثروات الهائلة من الذهب والفضة الآتية من الأميركتين، وبخاصةٍ الفضة من مناجم ما يُعرف اليوم باسم بوليڤيا، التي

قيل: إنها تحتوي على نصف مقادير الفضة في العالم. وكانت الفضة تأتي من أميركا عبر المحيط إلى شبه الجزيرة الأيبيرية، ثم تتدفق على آسيا لشراء سِلَعِها. وبهذه الثروات استمتعت آسيا الوسطى أيضاً، والتي قامت فيما بينها وبين الهند دولٌ وإمبراطوريات، ومنها إمبراطورية بابر حفيد تيمورلنك. وقد انتشرت إنشاءات بابر فيما بين الهند وأفغانستان وسمرقند، فنجح في إنجاز عالمٍ جديد من الرفاه والعظمة، وإلى ذلك كله كانت هناك تربية الخيول وتجارتها والتي فتنت الأوروبيين والشرقيين على حدٍّ سواء. وهذه الوجوه من التبادل والتحضر والحضارة ظهرت بأجلى صُوَرِها في إمبراطورية المُغُل بالهند. ولا يزال الضريح الذي شيده شاه جهان لزوجته المتوفاة شاهداً على التأثيرات المالية والفنية والثروات المتدفقة من جراء التجارة مع الغرب.

لقد صارت القاراتُ مترابطةً بعضها ببعض، وقد ربطتها بالدرجة الأولى تجارة الفضة، وقد وصف تاجر إنجليزي زار هرمز على الخليج الفارسي المدينة بأنها كانت غاصةً بكل جنسيات التجار الأوروبيين بشكلٍ لا يُصدَّق؛ لقد كان «نداء الشرق» شديد الجاذبية، والذين أتوا إلى الشرق من الأوروبيين ما كانوا جميعاً تجاراً، بل أتى كثيرون للعمل في التجارة وما حولها بأجورٍ مرتفعة. إنّ «طريق الفضة» كان بمثابة الحزام الذي طوَّق العالم، وهذا المعدن الثمين كان منتهى طرقه الصين بالطبع، وذلك بسبب صناعاتها الدقيقة، من البورسلين والسيراميك، والتي كان الأوروبيون شديدي الرغبة بها. واستجابةً لهذه الرغبة نشأ فنانون صينيون كبار، وانتشرت صناعاتٌ ما كانت معروفةً من قبل.

تُظهر خريطة Selden الصينية ـ التي أُعيد اكتشافها في مكتبة البودليان بأوكسفورد ـ اهتمامات الصينيين التجارية والعلمية والاتصالية؛ فهي تعرض مساحةً متسعةً لجنوب شرق آسيا، مع إشارات إلى خطوط الملاحة. ومع ذلك فيمكن الإشارة إلى استثناء، وهو أنّ هناك مشهداً فاصلاً أو منقسماً؛ فشمال العالم حدوده سور الصين العظيم، وشرقه حدوده بحر الصين. وهكذا حتى في زمن الانفتاح هذا هناك إشارة إلى أنّ الصين كانت تميل إلى لعب دورٍ

بعيدٍ عن المواجهة أو التصادم. إنما ينبغي أن نلاحظ أن التفوق في شرق آسيا كان للقوى البحرية الأوروبيـــة حيث كان الهولنديون والإســبان والبرتغاليون يتحركون ويصادم أحدهم الآخر؛ لكنهم كثيراً ما احتجزوا أو صادموا ســفناً صينية، وما كانت الصين مستعدة للدخول في «سباق التسلُّح» هذا، ربما خشية المعاناة، إنما في الوقت نفسه فإنهم كانوا شديدي الاهتمام بالتبادل التجاري.

إنّ الفضـــة التي تدفقـــت على الصين جرى اســـتخدامها في مشـــروعات إصلاحية في الاقتصاد، وفي تشجيع أسواق العمل، وجذب التجارة الخارجية. والطريف أنّ الغرام الصيني بالفضة بدا كأنما هو كَعْب أخيل (نقطة ضعفها)؛ فالفضة المتدفقة عبر مانيلا إلى أسواق الصين أدت إلى انخفاض أسعار ذلك المعدن. وفي حين جلب الانفتاح على الهند فوائد جمّة؛ فإنّ الصين ظهر فيها تضخّمٌ، وأزمة سياسية في القرن السابع عشـــر. ويُثبت ذلك أنّ العولمة الكثيرة المشـــكلات في الزمن الحاضر ما كانت مشكلاتها قليلة قبل خمسة قرون.

تُظهر خريطة Selden الصينية ـ التي أُعيد اكتشافها في مكتبة البودليان بأوكسفورد ـ اهتمامات الصينيين التجارية والعلمية والاتصالية؛ فهي تعرض مساحةً متسعةً لجنوب شرق آسيا، مع إشارات إلى خطوط الملاحة.

لقد لاحظ آدم سميث في كتابه المشهور (**ثروة الأُمم**) ـ بعد ذلك ـ أنّ أكبر حدثين غيَّرا العالم: اكتشاف الأميركتين، واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح. لقد تغيّر العالم على وقع تدفقات الذهـــب والفضة من الأميركتين، كما في اكتشـــاف الطريق البحـــري إلى الهند. وقد اســـتأثر بذلـــك من بين الأوروبيين كل من إسبانيا والبرتغال؛ لكن في المائتي عام اللاحقة بدءًا بالقرن السابع عشر؛ فإنّ المشهد انقلب لصالح بريطانيا، بخلاف كل التوقعات.